دبة النملة

قصة قصيرة

د. أحمد خالد توفيق

منقولة عن موقع بص وطل

لأنني من عشاق كتابات د. أحمد خالد توفيق منذ الصغر، فقد فكرت في جمع قصصه ومقالاته المجزأة في كتيبات صغيرة، يحتوي كل كتيب على قصة مُكتملة أو موضوع مُستقل، حتى يسهل على محبيه الإستمتاع بكتاباته الرائعة.

مدونة اقرأ
تاريخية ، ثقافية ، سياسية

دبة النملة

قصة قصيرة

د. أحمد خالد توفيق

رسوم : فواز

منقولة عن موقع بص وطل

اجلس يا محمود ولا تثِر توتري.. أنا أمقت الأشياء التي تتحرك في مجال نظري، وأمقت هؤلاء العصبيين كثيري الحركة؛ الذين ينقلون ساقا على ساق.. أنت تعرف أن التوتر العصبي معدٍ، وأن هناك ظاهرة تدعى (الإشعاع السيكو فيزيائي)-

اجلس وهات كوبا من الماء البارد من هذا الدورق. هل شغلت جهاز الكاسيت؟ لا بأس.. لكننا سوف نستمع إلى الشريط بالكامل بعد انتهاء قصتي.. هناك مقاطع لن أسمح لك بنشرها طبعا

صداقة طويلة جمعت بيني ورامز.. صداقة دامت 20 سنة على الأقل
كانت هذه الصداقة مثالية في كل شيء.. كنا صديقين مخلصين لبعضنا، وكان يعرف معظم أسراري وأنا أعرف كل أسراره.. لا مشكلة

بالنسبة لتوزيع المواهب كان التوزيع عادلا: أنا بلا أي موهبة من أي نوع.. هو يملك يدا وأذنا موسيقيتين بلا شك، وكان يتصدر أي احتفال للمدرسة

كنت قوي البنية محدود الذكاء قليل المواهب.. وكان هو ضعيف البنية شديد الحساسية والذكاء

لما أنهينا الدراسة الثانوية التحق هو بمعهد الموسيقى، أما أنا فدخلت كلية التربية النوعية. بعد هذا صرت مدرس تربية رياضية، أما هو فقد بدأ نجمه يعلو مع عدة فرق موسيقية وسرعان ما كوّن فرقته الخاصة وسجل عدة ألبومات ناجحة

كان وسيما ذو (كاريزما) أكيدة.. بالإضافة لهذا كان يحمل ذلك الوهن الذي يفتن الفتيات على طريقة عبد الحليم حافظ. شيء يحرك الأمومة في نفوسهن

أنت رأيته في التليفزيون يا محمود.. لا بد أنك أحببت الألحان التي يقدمها.. كان ظاهرة حقيقية.. هل ترى هذه المجلة التي تحمل صورته؟ كان نجما صاعدا بسرعة صاروخية، وأعتقد أنه كان سيجتاز نفس الطريق الذي اجتازه مطربون كبار

ثم ظهرت نورهان في حياته. فتاة رقيقة هادئة بدا لي أنها جزء من نجاحه الصاروخي ورحلة صعوده.. هو ذكي ويعرف كيف ينتقي رفيقة دربه
تزوجا وأعتقد أنها كانت زيجة سعيدة ناجحة

انتظر.. لم تنتهِ القصة عند هذا الحد. يا لك من أحمق! أنا لم أطلبك في هذه الساعة لأحكي عن قصة حياة موفقة. الموضوع هو أنني مذعور وخائف.. لم أعد أستطيع البقاء وحدي في البيت لأقصر فترة ممكنة.. خائف دوما.. ما يدور خلفي صار عالما كاملا.. يخيل لي أن كل شياطين الأرض تحتشد عند مؤخرة رأسي

دعنا.. دعنا نستكمل القصة

****

في سن الثلاثين بدأ رامز يلاحظ بقعا في مجال الإبصار.. في البداية يعتقد أنه وهم. ثم يقرر أنه الإرهاق.. ثم يعتقد أنه مريض بالفعل.. بل يؤمن بذلك

كانت هناك فترة من الحيرة لدى أطباء العيون، واستقر الرأي على أن العصب البصري يضمُر

ثم بدأت الكارثة الحقيقية عندما بدأ يلاحظ أن سمعه يضمحل.. بالفعل يجد عسرا في سماع صوت زوجته الهامس، وارتفعت طبقة صوته أكثر حتى إن الناس راحوا يسألونه عن سبب صياحه

هذه المرة وجد طبيب أعصاب بارعا.. وكان التشخيص مخيفا.. هذا مرض نادر يزحف على الأعصاب المخية ويؤدي لضمورها بالتدريج

هل من علاج؟ للأسف لا علاج سوى جرعات عالية من الكورتيزون لن تؤدي لشيء على الأرجح

هل من علاج بالخارج؟ لو تلقيت العلاج في مايو كلينيك على يد البروفسور (جون كلارك) أم في حارة الزغبي على يد برعي الممرض بقصر العيني فلا فارق.. نفس سياسة العلاج

هكذا راح رامز يهوي بلا توقف في قاع الظلام
الظلام الذي يجعله الصمت مريعا
كان يقرأ عن هيلين كيلر الكاتبة الأمريكية الصماء الخرساء، ولم يتخيل قط أن يعيش المرء بتلك العاهات الثلاث، وها هو ذا يواجه نفس المصير مع القدرة على الكلام طبعا.. تذكر كذلك أن هيلين كيلر قالت: الصمم ألعن شيء في العالم.. في الظلام لا ينقذك سوى سماع صوت مألوف يهدئك. هذا يختلف عن اعتقاد الناس أجمع، لكنه ذات ما آمن به رامز.. فعلا مصيبة الصمم أسوأ ما حدث له

راح رامز يهوي بلا توقف في قاع الظلام - (رسوم: فواز) -

ومع موسيقي
نعم. هو موسيقي.. أذنه هي حياته وأكل عيشه ومستقبله.. لن يملك قدرات بيتهوفن الذي كتب سيمفونيته التاسعة وهو أصمّ تقريبا يتحسس اهتزازات البيانو. ليس هو

رحت أتردد عليه وكاد القلق يقتلني
إن حالته النفسية تتردى.. أعتقد أنها حالة انتحار لم تحدث بعد
لقد انتهى سبب وجوده

رحت أقول له كل كلمات رقيقة قد تهدئ من روعه.. لكنه كان يتلقى كل كلمة لي كأنه يلعب مباراة تنس طاولة.. كل كلمة لها رد.. أقول له:-
-"أنا أفهم ما تشعر به"-
فيرد على الفور:-
-"لا.. لا تفهم!"-
-"سوف تتذكر هذه الأيام باسما"-
-"في العالم الآخر؟"-
كانت حالته تسوء بلا توقف، ولا شك أن نورهان كانت تمر بأتعس أوقات حياتها

حدث ما حدث في ذلك اليوم الذي كنت أمشي فيه في الدقي عندما اصطدمت بذلك الرجل. عندما دققت أكثر أدركت أنني أعرفه.. هاشم
نظر لي في دهشة وذهول ثم ارتمى في أحضاني، ورحنا نثرثر عن كل شيء، وأنا لا أجسر عن توجيه السؤال الأهم الذي يؤرقني

في النهاية استجمعت أعصابي وسألته.. عندها عرفت
هاشم كان قد أصيب بضمور في الشبكية منذ ثلاثة أعوام. صار كفيفا تماما.. وكان هذا شيئا قاسيا جدا في سنه الصغيرة الواعدة

كنت قد تركته كما نفارق دار السينما بعد نهاية حزينة، ولم أرَه منذ ذلك الحين.. لكنني اليوم أجده يمشي بكامل لياقته ويراني ويعرفني
عندما جلسنا في ذلك المقهى استجمعت شجاعتي وسألته عن سبب استعادته بصره. المعجزة التي أدت لذلك. ما أعرفه هو أن الأطباء أعلنوا عجزهم عن عمل شيء

قال هاشم في مرح:-
-"كنت قد فقدت الأمل تماما حتى.."-
-"حتى ماذا؟"-
-"حتى قابلت ذلك الطبيب.. ذلك الساحر.. ذلك النطاسي الخارق للعادة.."-
-"وماذا فعل معك؟"-

ابتسم وضاقت عيناه للحظة ثم قال:-
-"الأمر شبيه بالعلاج بالخلايا الجذعية.. شيء من هذا القبيل.."-
كنت أعرف حلم الخلايا الجذعية الذي عذب مرضى كثيرين.. مهما كانت حالة المريض ميئوسا منها فهم يبشرونه بشيء اسمه الخلايا الجذعية، والحقيقة أن أبحاثها ما زالت في مرحلة الطفولة، وعدد النصابين أكثر بمراحل من عدد الصادقين.. كثيرون يسافرون إلى تايلاند ليتلقوا أقسى صدمة في حياتهم

-"هل هو طبيب مصري؟"-
-"أرمني.. لكنك لن تعرف هذا لأنه يتكلم العامية المصرية أفضل منا"-
-"هل هو طبيب عيون فقط؟"-
-"بل هو طبيب كل شيء! على طريقة أطباء الماضي.. ابن سينا والرازي وجالينوس وأبقراط.. يتعامل مع البشر ككل"-

بعد إلحاح كتب لي اسم الطبيب وعنوان عيادته ورقم هاتفه
-"هل أتعابه باهظة؟"-
-"غالية نوعا ما.. لكن بكم تثمّن عينيك على كل حال؟"-

بعد إلحاح كتب لي هاشم اسم الطبيب وعنوان عيادته - (رسوم: فواز) -

تأملت البطاقة.. دكتور ويليام أنطونيان.. الـ(يان) التي تدل على أن صاحب الاسم أرمني على الفور أعرف مريضا سوف يجرب هذا الطبيب.. يجربه هذا الأسبوع حتما

.....

كان جالسا في تلك الغرفة خافتة الإضاءة، وعلى عينيه ضمادات.. دخلت نورهان حاملة صحفة عليها مشروب بارد وجلست جوارنا ترمق زوجها في جلسته المتصلبة

بدا لي الأمر كأنه مر بجراحة معينة.. وانتظرت حتى يحكي لي ما حدث

كان ما زال قادرا على السمع لكن عليك أن تصيح بصوت جهير، وكان يتكلم بنبرة عالية كذلك لأنه لا يدرك مدى ارتفاع صوته

قال لي:-
- بالطبع لم أستطع رؤية ما يحدث جيدا.. كنت أرى بعض الأشباح، وعرفت أنها شقة في بناية شامخة في وسط البلد.. بناية ذات مصعد يتعطل أكثر الوقت. الشقة كانت نظيفة ورائحة المطهرات تملؤها

لكنها قديمة. أما الرجل فكان له صوت عميق مريح كأنه أريكة تضع عليها توترك الخاص. لا توجد أي لكنة غربية في كلامه.. تشعر أنه مصري ابن مصري

كان كلام دكتور ويليام لا توجد به أي لكنة غربية - (رسوم: فواز) -

قال لي إنه يمارس ضربا غير تقليدي من العلاج، وهذا العلاج يتلخص في حقني بمجموعة من الحقن التي تحوي خلاصة خلوية.. أما عن محتوى هذه الحقن فهنا يكمن سر العلاج.. لا أسئلة من فضلك. لا يمكن إفشاء السر، ولو كنت مصرا فبوسعي دائما أن أنسحب. لن يخبرني... باختصار "ما بين البائع والمشتري يفتح الله"-

وافقت طبعا.. وقلت لنفسي إنني لن أخسر شيئا.. و"ضربوا الأعور على عينه قال خربانة خربانة".. هذا المثل ينطبق على حالتي حرفيا

لا أعرف متى وضع ورقة تحت يدي وقلما في يدي فسألته عما هنالك، فقال:-
- هذا
Consent
موافقتك على استخدام العلاج
وقّعت.. ولا أدري متى ولا كيف كشفوا عن ساعدي ولا كيف اخترقت إبرة أوردتي، ثم شعرت بسائل بارد يسري هناك.. وهكذا انتهت الجلسة وعرفت أن هناك ثلاث جلسات أخرى

نظرت إلى نورهان التي راحت ترمق زوجها في قلق حنون، وسألتها:-
- ما انطباعك عن الأمر كله؟ نصب؟
رفعتُ الشعر عن عينها فرأيت دمعة متحجرة هناك. وقالت:-
- أعتقد أنه صادق.. الجو يوحي بالاحترام والثقة
- والنتائج؟

قال رامز وهو محتفظ بجلسته المتصلبة:-
- بالنسبة للعينين لا تحسن.. الأمر يزداد سوءا.. بالنسبة للسمع هناك تحسن طفيف

قلت بصوت خافت:ـ
ـ طفيف؟
ـ نعم طفيف

تبادلت نظرة جانبية باسمة مع نورهان.. لقد سمع هذا السؤال الخافت برغم كل شيء.. ما زلنا في مرحلة رمادية.. لا يمكن أن تُقسم أن سمعه يسوء أم يتحسّن لكن هناك علامات

عندما فارقته تمنيت أن يكون في الطريق الصحيح

***

القصة كما ترى يا محمود ليس فيها شيء مريب أو غير طبيعي.. مريض طلب الشفاء ولعله وفق أو لم يوفق. ليس الأمر خطرا. ليس ذلك بالشيء الذي يثير الهلع

على كل حال في ذلك الوقت لم أكن أعرف أن المهندس شاكر يصلح آلة التقطيع في المصنع

المهندس شاكر في الأربعين من عمره، وهو رجل ذكي مرموق.. جوار عمله في المصنع، لديه ورشة سيارات خاصة عانى كثيرا حتى أنشأها، وجاهد حتى يكسب ثقة العملاء. يعتمد على نفسه كثيرا ولا يترك الأمور للعمال، لهذا وثق به زبائنه.. شاكر صديق قديم لي وإن كنا نلتقي لماما

يفكر شاكر الآن في مها زوجته وفي هدية عيد ميلادها التي تنتظر في حقيبة السيارة.. يفكر في ابنته نورا الرقيقة ابنة السنوات العشر.. يفكر في الورشة وفي الشريك الجديد. سوف يذهب هناك بعد انتهاء ورديته في المصنع ليتناول غداء خفيفا ثم يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل

كانت آلة التقطيع معطّلة وقد جاء رئيس الميكانيكية يخبره بذلك. قام بفصل السكينة وجلس محتبيا ليعالج النصل ومجموعة التروس. مها كانت مكتئبة أمس ولا يعرف السبب.. هل هناك شيء ضايقها؟ كانت هناك مكالمة مع أخته.. هل حدث شيء بينهما في ذلك الوقت

و...-

لا يعرف ما حدث.. هناك مجنون ما في كل مكان.. هناك حمار ما في كل مصنع.. حمار من الطراز الذي يجد سكّينة الكهرباء في وضع فصل التيار فيعيدها لمكانها وهو مندهش

تدور الآلة. يهوي النصل

لا يوجد ألم.. الصدمة العصبية رحيمة وتجعله ذاهلا في عالم آخر. لا يعرف سوى أنهم يصرخون وأنهم يحملونه، وأن سائلا دافئا يبلل الأرض.. سيارة إسعاف من الداخل.. كشافات.. أرجل تركض على بلاط المستشفى
ثم الظلام

الضوء يتسلل ببطء. شاكر يفيق وشعور بالغثيان يغمره.. ينهض والعرق يبلله بالكامل

إنه في فراش مستشفى.. لا شك في هذا. الأبيض اللعين الذي وصفه أمل دنقل، والذي هو لون الموت ذاته. ينهض.. هو في مستشفى. لا يذكر أي شيء سوى أنه كان يصلح الآلة.. ثم حدث شيء ما.. حدث شيء هو..؟

هناك من شغل الآلة
حمار ما قام بتشغيل الآلة
ماذا حدث وقتها؟ رفع ساعده الأيمن ببطء.. وعندها أدرك الحقيقة.. لم يعد لديه يد.. هناك ضمادة قبيحة لا يمكن أن تخفي يدا تحتها.. بل عندها يبدأ الأمر وينتهي

رفع شاكر ساعده ببطء وتأمل الضمادة - (رسوم: فواز) -

منذ ساعات كان رجلا مكتمل الجسد يفكر في هدية ميلاد زوجته.. الآن هو أكتع.. أكتع
لا بد أنه فقد الوعي في هذا الوقت

***

عندما قابلته -بناء على كلمات صديق أخبرني بالفاجعة- كان قد تغير جدا
كان جالسا هناك في مقعد في شرفة المستشفى وهو يتأمل الضمادة التي كانت يده
حاولت أن أمازحه لكن مزاجه كان متعكرا

قال لي إن مستقبله انتهى.. صحيح أن المهندس لا يجب أن يعمل بيده، لكنه اعتاد ذلك.. دعك من ورشة السيارات التي علق عليها كل آماله.. إنه رسام بلا يد

شعرت بأسى شديد.. ما أكثر النحس الذي يمر برفاقي.. إما أن دوري في هذه المصائب قادم وإما أنا الذي أسبب لهم النحس

سألته:-
- هل هناك وسيلة تعويضية ما؟

ابتسم في تعب وقال:-
- مستحيل.. اليد عضو شديد التعقيد.. يجب أن أتأقلم.. هذا هو الحل
غادرته وأنا أشعر بالتعاسة والأسى

***

اتصلت برامز لأطمئن على أموره فرد عليّ في مرح

شعرت بسرور بالغ.. كان صوتي خفيضا ولم أكن أصرخ في الهاتف لكن بدا أنه يسمعني جيدا. كنت أسمع في الخلفية صوت دوزنة أوتار كمان.. من الواضح أنه يكلمني وهو يداعب أوتار الكمان. علامة صحية أخرى

- هذا يعني أن علاج الأرمني ناجح فعلا
- هذا واضح.. لكن بصري يزداد سوءا.. هذه نقطة لا أنكرها

هنا حكيت له عن شاكر زميل دراستنا.. كانت قصة مؤسفة مؤسّية وبدا لي أنه من المستحيل أن يساعده أحد.. هنا قال لي في لهفة:-
- بالعكس.. لقد ذهبت للطبيب الأرمني مرة أخرى وقالت لي زوجتي إن هناك مرضى مبتوري الأقدام ينتظرون الفحص

هنا يبدأ التخريف إذن.. قلت في عصبية:-
- الأمر لا يتعلق بمرض عصبي.. هناك أطراف طارت.. لم تعد هناك
- أنا أعرف ما أقول

ثم أضاف بلهجة تقريرية:-
- دع شاكر يزور هذا الطبيب الأرمني.. هو لن يخسر شيئا.. وأنا أعدك أن هناك معجزة في الطريق

.....

مكنك أن تتخيل تعبير وجه شاكر عندما أخبرته بهذا الاقتراح
تصور هذا سهل على كل حال.. نحن لا نتحدث عن حاسة تُفقد أو قدرة تضيع.. نحن نتحدث عن طرف طار.. تمزق.. ذهب به نصل

المسكين
قال لي في أسى:-
- لقد انتهى زمن المعجزات.. أنا لا أفهم في الطب لكن ثق بأنني لن أحمل جثة مزقها القطار إلى عيادة طبيب
نظرت ليده المبتورة الملفوفة في الضمادات ثم قلت:-
- عدني بشيء.. أنا مخبول غير مستقر نفسيا.. اتفقنا؟
- أنت لست كذلك
- بل أنا مخبول من الطراز الذي يجري في الشوارع وكسرولة على رأسه.. اللعاب يسيل من فمه.. هذا المخبول لا يريد سوى شيء واحد هو أن تذهب لهذا الطبيب
- هذا مطلب عسير.. أنت تداعبني دعابة قاسية اسمها الأمل.. هذه الدعابة لن تفضي بي سوى لمزيد من الألم

كان إلحاحي شديدا.. وقد استطعت بالفعل أن أقنعه بأن يجرب
عرفت فيما بعد أنه ذهب هناك مع زوجته مها.. كانت مها مستعدة لتجربة أي شيء. لا بد أن هناك أعشابا صينية تعيد الأيدي المبتورة. لا بد أن هناك طريقة ما تعيد حياتها لما كانت.. تعيد البسمة لزوجها

وكما هي العادة قابل الطبيب الأرمني وكان نفس الانطباع وكانت ذات المحادثة... ثم وقّع على الورقة بيده السليمة وهو يكتم ضحكة ساخرة. هذا الرجل نصّاب بلا شك.. لكن الدفع سيكون بعد الشفاء طبعا.. لن تكون الخدعة قاتلة.. لن يسلبه شيئا سوى الأمل. لقد تغير الزمن كثيرا يا شاكر.. صاروا يسخرون منك، وصرت أنت كمّا مهملا.. لكنك تسخر منهم إذ تتظاهر بأنك تصدقهم
عاد إلى البيت وأعتقد أنه ازداد سوءا على الأقل من الناحية المعنوية

***

أنت تسجل كل شيء يا محمود.. أليس كذلك؟ تصور أنني أتذكر بعض التفاصيل التي نسيتها تماما.. الكلام يرغمك على ترتيب أفكارك

فعلا
أذكر كيف أمضيت أياما عدة لا أعرف شيئا عما حدث في هذه القصة.. اتصلت برامز عدة مرات، فكان يؤكد أن سمعه ممتاز لكن بصره كما هو

أما عن شاكر فلم يكن هناك أي تطور في حالته

جاء اليوم الذي اتصل بي رامز فيه ليقول إنه فهم الخدعة الكامنة في العلاج الذي تلقاه.. هناك أثر جانبي واضح. وما هذا الأثر الجانبي يا ترى؟ هل فشل الكبد أم ارتفع ضغط الدم؟
ـ السمع صار حادا جدا.. فعلا يمكنني سماع الفئران وهي تتحرك في "المسقط" عند الجيران، ويمكنني سماع دقات قلب زوجتي وهي نائمة

هذا فقط؟ ابتسمت وقلت:ـ
ـ هذا عرض لا يخلو من الهستيريا.. أنت تعرف الهستيريين الذين يشكون دوما من صوت التنفس العالي لمن يجلسون قربهم
ـ "بيريجيب"ـ
قالها في ثقة ثم راح يفسر لي:ـ
ـ في الروسية معناها محاولة تقويم العصا المعدنية مما يثنيها للجهة الأخرى.. يبدو أنه بالغ في العلاج

استمعت له بنصف انتباه ونصف اهتمام.. لا أصدق أن يكون هناك شيء اسمه شفاء أكثر من اللازم.. هذه تبدو لي شكوى مترفة جدا. سألته بعدها:ـ
ـ هل دفعت أجرة؟
ـ بالطبع.. لقد قام بالاتفاق وأعاد لي سمعي.. سمعي يعني حياتي
ـ لكنك كفيف حسب ما فهمت.. لم يتغير شيء
ـ قلت لك إن أذني هي حياتي.. لو كنت رساما لكانت هذه قضيتي الأولى

بالطبع يا محمود لم أستطع أن أصدق كل شيء.. ثمة احتمال لا بأس به أن يكون الشفاء جاء بالصدفة. لو كان هذا الطبيب يعرف عمله حقا لشفي بصر رامز كذلك، خصوصا أن عندنا سابقة مهمة مع هاشم.. أعتقد أنه مجرد نصاب بارع حسن الحظ

كانت الأسئلة تملأ ذهني
في المدرسة رحت أراقب الصبية وهم يمارسون تمريناتهم الرياضية.. ويركضون حول الفناء. كم أن الإنسان رائع ومعجزة في الخلق

تتضافر الحواس والقدرات والعضلات والأعصاب لتصنع سيمفونية بالغة الإتقان.. سيمفونية أجمل ما فيها أنك لا تشعر بها.. فقط عندما يتلف شيء ندرك أي نعمة كنا فيها

قررت أن أزور هاشم هذه الليلة بالذات.. هل صار يبصر أكثر من اللازم؟ هل صار يرى أشخاصا ليسوا هنالك أو غير موجودين أصلا؟

***

ظللت أدق الباب عدة مرات بلا جدوى
أنا أعرف أنه متزوج ولديه طفل. فماذا حدث؟

واصلت الدق في عناد، وكان هذا حلا موفقا لأنه كما يبدو كان ينتظر أن يرحل هذا الفضولي السمج..
سمعت صوته الغليظ من وراء الباب يصيح:-
- ماذا تريد؟

أعلنت من أنا بصوت أقرب للتوسل.. فأبدى دهشته من قدومي. لم يبد ودودا على الإطلاق. ثم انفتح الباب
- ماذا أتى بك في هذه الساعة؟
قلت في حرج:-
- ظننت أن...-
- مرحبا بك بالتأكيد لكنني كنت أنتظر موعدا مسبقا
وسمح لي بدخول الشقة.. ظلام دامس تقريبا.. لا توجد سوى مصابيح خافتة مما نطلق عليه اسم "وناسة"-

لا أرى شيئا تقريبا.. هناك رائحة كريهة فعلا.. هذا بيت لا ينظف ولا يحمل آثار لمسات الأنثى
قلت له وأنا أتحسس طريقي:-
- كيف حال المدام؟
قال ما توقعت أن يقوله:-
- أنا مطلق.. زوجتي لم تتحمل أن تعاني معي

لذت بالصمت.. هذا شيء قاس فعلا.. الزوجة رحلت بمجرد أن فقد زوجها بصره.. ليست الفارسة المناضلة التي يريد لها العالم أن تكون

وعلى كل حال لا يمكن أن ألوم أحدا قبل أن يختبر المرء نفسه..هناك أزواج طلقوا زوجاتهم لأنهن

أصبن بسرطان واستأصلن جزءا من أنوثتهن

لكنني الآن أدرك أن حياة هاشم قاسية فعلا.. ألا توجد عاملة تعني بهذا البيت؟
ـ لقد أرسلت صديقي للدكتور الأرمني كما اقترحت أنت.. النتائج جيدة فعلا.. لكنه يشكو من آثار جانبية
ـ كنت أعرف أنه سيشفى.. وكنت أعرف أن آثارا جانبية ستحدث

اصطدمت بأريكة فجلست عليها بينما جاء هو بزجاجة مياه غازية من مكان ما.. كيف يرى في هذا الظلام الدامس؟ لقد شفي جدا بالتأكيد

شعرت بشيء يتهشم تحت قدمي فنظرت.. الظلام دامس فلا أرى جيدا.. لكن هناك حاسة تقدير الأشياء التي تجعلك تخمن ما يوجد تحت قدمك

مددت يدي وتحسست.. بالفعل كما توقعت
إن صديقي هاشم يعيش حياة قذرة فعلا

.....

راح هاشم يتكلم وأنا شارد الذهن أفكر بعمق فيما وجدته. خطر لي نوع من الهاجس الذي لا يستند إلى أساس علمي أن عينيه تلمعان أكثر من اللازم.. ربما هما تضيئان

خطر لي هاجس أن عيني هاشم تلمعان أكثر من اللازم ـ (رسوم: فواز) ـ

ماذا يحدث هنا بالضبط؟
كان ما لمسته وتهشم تحت قدمي هو عظام.. عظام حيوان أو طائر صغير، ويبدو من ملمسها أنها هنا منذ زمن سحيق. هناك كمية هائلة منها

ما معنى هذا؟ هاشم يعيش في هذا الوكر ولا يتخلص من بقايا طعامه. سمعت أن أمورا كهذه تصيب مرضى السكيزوفرنيا أو في حالات خرف الشيخوخة. المريض لا يدرك أنه يعيش في وكر قذر. عاداته تسوء مع الوقت وهو لا يدرك الانحدار الذي يهبط له.. وفي لحظة هو مجنون ناري النظرات منكوش الشعر يلبس الأسمال ويقف في زقاق خلفي يتسول، ومن حين لآخر يحك رأسه بسبب القمل

الحقيقة أنني راغب في الرحيل بالتأكيد.. لا أحب هذا الجو
هل جن هاشم لأنه استرد بصره فلم يتحمل هذا الانفعال؟ أم هذا أثر جانبي لعلاج الأرمني اللعين؟

لا أعرف متى وجدت هاشم يمسك بعلبة من الورق المقوّى يشرب محتواها بقشة شفاط.. أعرف منظر هذه العلبة ولونها..هذا لبن .. قدم لي المياه الغازية وراح يشرب اللبن

برررررر
من أين يأتي هذا القرير؟ هل هناك محرك سيارة يدور في الجوار؟ لماذا تلمع عيناك يا هاشم بهذا الشكل؟

قال هاشم وهو مستمر في الامتصاص:-
- أحيانا يكون علينا أن نتخذ قرارا عسيرا.. قرارا يغير حياتنا بالكامل.. لكن هناك متعة خاصة في الاستسلام. أن تقبل أن تكون ما يراد منك أن تكونه. أنت تعرف أن هناك نساء لا يعشقن سوى الرجل الفظ الذي يقهرهن قهرا.. هذا هو ما حدث معي تقريبا

كان ردي الوحيد والبسيط هو: لا أفهم.. هل هناك في حياته شخص يرغمه؟

برررررا! هذا غريب.. الصوت يصدر منه فعلا.. لا شك في هذا.. تأملت جسده الضخم المنحني في الظلام وشعره المنتفش.. تأملت عينيه اللتين تلمعان في الظلام؛ بدا لي غريبا فعلا

لقد حان وقت إنهاء هذه الجلسة.. أنا الآن أعرف أن العلاج فعّال جدا.. فعّال أكثر من اللازم لكنه كذلك يسبب غرابة الأطوار.. حان الوقت كي أزور صديقا آخر هو شاكر.. أريد أن أعرف أخبار العلاج الذي تلقاه

طبعا يصعب الاعتقاد أن العلاج كان ذا جدوى معه.. الأمل والألم.. هو تكلم عنهما معا.. لماذا لم ألحظ من قبل أن اللفظين يحملان ذات الحروف؟ ربما هناك لفظ ثالث كذلك هو المال.. نقص المال يسبب لك ألما.. لكن الأمل الذي يخيب يسبب لك ألما لا يوصف

طرقت الباب مرارا.. كان موعدا سخيفا يناسب ضيفا سمجا وقحا مثلي
فتحت لي زوجته مها الباب.. أعرف مها منذ زمن ولم أرها من قبل شاحبة متوترة بهذا الشكل. تأمل لون الصفحة لتأخذ فكرة عن لون وجهها

دعتني للداخل وقالت إنها ستنادي زوجها حالا.. سألتها عن نورا العزيزة الصغيرة، فقالت بلهجة غامضة:-
- نورا عند جدتها الآن.. لا تسأل عنها كثيرا
طلب مريب فعلا.. ابتلعت ريقي وسألتها عن شاكر.. ما أخبار معنوياته؟
قالت في ارتباك:-

ـ يتحسن. لا شك في هذا

في هذه اللحظة دخل شاكر الغرفة. فتح ذراعيه مرحّبا بي.. وعندما غبت في حضنه أدركت شيئا مرعبا: هناك يدان تحيطان بي! تراجعت للخلف ونظرت

بالتأكيد لست أحلم.. عند كم سترته رأيت يدا صغيرة مشوّهة.. ليست جميلة المنظر وهي مغطاة بحراشف ولونها برتقالي مقزز.. لكنها يد! أضف لهذا أن يده السليمة لم تكن جميلة المنظر كذلك

تراجعت للخلف مذهولا فقال وقد رأى نظرتي:ـ
ـ هذه يد حقيقية.. ليست صناعية.. طبيبك هذا كان عبقريا فعلا.. إن يدي تنمو.. أعتقد أن شكلها سيتحسّن مع الوقت

كنت أزداد رعبا.. رباه! الأمر لا يتم هكذا.. مستحيل أن يتم هكذا.. هذا كابوس
قالت مها في ارتباك إنها ستعد لنا بعض الشراب، فقال شاكر إنه سيفعل ذلك.. طلب منها أن تنصرف لأن بيننا الكثير من الكلام

عندما انصرفت وهي ترتجف، قال شاكر:ـ
ـ هي ما زالت مرتبكة متهيبة. المرء يخاف ما لم يعتده وأنا شيء غير معتاد. بيني وبينك لم أتوقع هذا الذي حدث قط.. العلاج فعّال بلا شك

قلت في ذهول:ـ
ـ نحن لا نتكلم عن علاج فعّال.. نتكلم عن معجزة تغير وجه الطب للأبد

نهض مسرعا إلى المطبخ، وظللت وحدي في الصالون أرمق الجدران مفكرا. لا يوجد أثر جانبي على قدر علمي.. هناك ذعر الزوجة وحيرتها لكن هذه ليست نهاية العالم. ما حدث هو معجزة بكل المقاييس.. حتى أعتى السحرة لم يستطيعوا إعادة طرف مبتور

سمعت صوتا غريبا من المطبخ.. كأن هناك من يقبّل خدا بصوت عالٍ مزعج
شعرت بقلق.. الزوجة ليست هنا. نهضت في حذر نحو ما أعتقد أنه المطبخ وألقيت نظرة. هناك براد شاي على النار. هناك منضدة في منتصف المكان. فوق المنضدة طبق به شيء أعتقد أنه ملح.. أما المشهد العجيب فهو مشهد شاكر وهو راكع على ركبتيه إلى جوار المنضدة وقد مد لسانه.. لسان طويل جدا يلعق به الملح في الطبق

تراجعت للخلف لأحبس صرخة هلع كادت تنطلق مني، وقفت بضع دقائق أشهق محاولا أن أستعيد تنفسي

محمود.. هل تسجل كل شيء؟ سوف أحذف هذا الجزء أو أغير الأسماء حتى لا أؤذي الزوجة. يصعب بعض الشيء أن نقول عن زوجة محترمة إن زوجها يلعق الملح في المطبخ

عدت في حذر ألقي نظرة على المطبخ عبر الباب. لم أر سوى الموقد والشاي عليه. أين شاكر؟

لسبب ما رفعت رأسي لأعلى وكان المشهد كافيا كي يتوقف قلبي للحظات.. كان شاكر يتشبث بالجدار قرب السقف ووجهه له وقد فتح ذراعيه. ثبت كفيه للجدار كأن لهما ممصات وكان يتحرك بسلاسة غير عادية

كان شاكر يتشبث بالجدار قرب السقف وقد فتح ذراعيه - (رسوم: فواز) -

ثمة شيء مألوف في هذا
هل فهمت يا محمود؟ يلعق الملح ويمشي على الجدران؟ هذا سلوك وَزَغَة بُرص بلا شك.. صديقي قد تحول إلى بُرص آدمي عملاق

هل فهمت؟ الأمر واضح. كي يستعيد اليد التي فقدها، حوّله الطبيب الأرمني المجنون إلى بُرص.. رأيت فيلما شنيعا في "ناشونال جيوجرافيك" لقدم بُرص مبتورة تنمو وتتحول مع الوقت لقدم سليمة كاملة. هذا هو ما خطر للطبيب الأرمني

وماذا عن هاشم؟ الآن يمكنني الفهم.. يقر وهو يشرب اللبن ويلتهم حيوانات صغيرة -فئران على الأرجح- وعيناه مضيئتان.. إنه يتحول إلى قط.. هذه هي الطريقة المثلى كي يكتسب عيني القط ويبصر جيدا.. بل يبصر في الظلام كذلك

قفّ شعر رأسي.. قفّ كما هو منتصب الآن.. هات المزيد من الماء البارد.. أتناول معه قرصا من "الديازيبام" لكني مضطر لزيادة الجرعة يوما بعد يوم، سوف أتحول لمدمن قريبا جدا

أنت كذلك بدأت تتوتر
لم يبدأ المرح بعد.. ماذا لو حكيت لك عن اللحظة التي استدار فيها عنق شاكر ورأيته ينظر لي من وضعه المقلوب؟ لقد أدرك أنني فضحت سره

عتقد أن قلبي كان موشكا على التوقف
هناك لحظة مخيفة بين التحديق في ذلك الوجه يحملق فيك، وإدراك الحقيقة المخيفة.. إنه يراك

الآن أفهم سر توتر الزوجة وشحوبها.. أفهم لماذا ذهبت نورا عند جدتها. هل رأت الزوجة هذا المشهد؟ لا أظن وإلا ما ظلت حية.. على الأرجح هي خمنت أو شعرت بشيء ما خطأ. لكن لا تقل لي إنها رأت زوجها يمشي على الجدران وقبلت ذلك

رأيت ذلك الشيء الذي يمشي على السقف ينحدر نحوي.. يهبط الجدار بسرعة خاطفة مما تميز الزواحف.. سرعة خاطفة تقطعها وقفات متحفزة حذرة. صمت تام يجعلك تشعر أن أذنك مختلة. فجأة وجدت يدي تطبق على سكين الطعام الضخمة تلك.. شعرت بأمان شديد وانا أعتصرها

فجأة وجدت يدي تطبق على سكين الطعام الضخمة - (رسوم: فواز) -

هرعت إلى الباب فخرجت، ثم أغلقته خلفي في قوة وركضت إلى الصالة.. هنا رأيت مقبض الباب ينفتح. وفي اللحظة التالية كان شاكر يركض على قدميه متجها نحوي. لقد تبدل وجهه فعلا.. لم يعد وجه المهندس الظريف البارع صديقي القديم. هذا وجه.. وجه وَزَغَة

سقطت على الأرض متعثرا.. من الحمار الذي وضع هذا البساط هنا؟
تمسكت بالشرشف فجذبت مزهرية كانت فوقه لتسقط وتتهشم.. ثم وجدت نفسي راقدا وقد جثم فوقي شاكر يحملق في وجهي بعينين زجاجيتين.. لسانه العملاق يتدلى نحو وجهي. كان هلعي لا يوصف.. لا أعتقد أنني حركت أنملة ولا أطلقت أي صوت. فقط رفعت السكين لأعلى.. نحو قلبه.. وشعرت بالنصل يخترق شيئا. ثم أدركت أن الأمر انتهى

إنه جسد خال من الحياة يجثم فوق صدري
نهضت بصعوبة وأنا أحاول استيعاب هذه الحقيقة المروعة.. لقد مات شاكر. رأيت شفتيه الجافتين تحاولان نطق شيء. في النهاية استطاع أن يقول بصوت كالفحيح:-
- اقتل دكتور.. أنطونيان

ثم تجمد وجهه على هذا التعبير وهذه النظرة.. كانت لديّ في طفولتي دمية تفتح جفنيها وفمها.. وعندما نفدت الحجارة الجافة ظل وجهها في وضع واحد متصلب. تذكرت هذا المشهد الآن

سمعت صرخة حادة رفيعة من خلفي. لم يكن من داع للنظر لأعرف أنها مها الزوجة.. لقد قتل زوجها أمام عينيها، ولسوف يكون من الصعب أن أشرح أنه من فعل ذلك.. هناك دعابة قديمة عن رجل الكويكرز (وهو مذهب ديني يميل للسلام) الذي وجد لصا في بيته فأخرج المسدس وصوبه عليه وقال:-
- عذرا يا أخي.. لكنك تقف بالضبط في المكان الذي سأطلق فيه النار

تذكرت هذه القصة الضاحكة وأنا في موقف مختلف تماما
كم من الوقت يلزم رجال الشرطة حتى يجدوني؟ عندها فكرت فيك يا محمود.. سوف أتوارى عندك ولكن بعد ما أعرف الإجابة

هرعت أركض نازلا في الدرج.. ركضت في الشارع وأنا لا أفكر إلا في شيء واحد.. رامز ماذا دهاه؟

***

كان باب الشقة مواربا
دققت الجرس عدة مرات فلم يرد أحد. طرقت الباب مرارا
كان هناك صوت عزف.. عزف رقيق على آلة وترية. عزف لا يقدر عليه سوى رامز. دخلت إلى الشقة في حذر كأنني لص. شقة فاخرة كما تعرف، ونورهان قد جعلت منها جنة.. لكن هناك شيئا خطأ

رحت أبحث بين الحجرات عن رامز أو عن نورهان فلم أجد أحدا.. أين الجميع؟
رامز يتمتع بأذنين حساستين جدا.. بالواقع هو يسمع "دبّة النملة".. لهذا لا بد أنه سمع خطواتي. من المعتاد أن أقابل نورهان في الصالة.. هي لا تكف عن العمل كالنحلة. أين الجميع؟

أخيرا وجدت غرفة المكتب.. كانت مظلمة تماما والباب مواربا.. فتحت الباب بحذر وانا أنادي رامزا.. شعرت بشكل ما أنه موجود.. لاحظ أنه لا يبصر، ويمكنه الوجود في الظلام بلا مشكلات. قلت بصوت عالٍ:-
- رامز.. أرجو أن تكون بخير
لا رد

- رامز.. ذلك الطبيب الأرمني.. لقد اكتشفت أنه يستعمل جينات حيوانية.. جينات يحقن بها المرضى ليستردوا حواسهم... النتيجة هي أن المريض يتحول لحيوان آخر
لا رد
- رامز.. هل تسمعني؟

ثم سمعت صوتا غريبا.. بدأت عيناي تعتادان الظلام وأدركت أنه لا يوجد أحد.. هذا مكتب ومكتبة وأريكة.. لا أحد هنا
لكن.. لماذا نظرت لأعلى؟ لقد صارت عادة لدي أن أنظر لأعلى... لقد كان الحافز قويا وثمة شيء يعبث في مؤخرة رأسي. نظرت في هلع وليتني ما نظرت

أنت تعرف ما رأيت يا محمود.. وتفهم الأمر
كائن كفيف لكنه يسمع كل شيء.. الإجابة سهلة جدا: الوطواط

بشكل ما كان يتدلى مقلوبا من السقف متعلقا بركبتيه إلى دعامة عرضية قام بتثبيتها هناك.. مغمض العينين يزوم نوعا ويعزف على كمان صغير

وفي لحظة وثب في الهواء ليسقط باتجاهي
هذه المرة لم أستطع الفرار ولم أكن مسلحا، وشعرت به ينشب أسنانه الحادة في عنقي.. صرخت طالبا أن يتريث.. لكنه واصل مهمته.. ترى لماذا اختار الأرمني جينات وطواط مصاص للدماء؟

لم تطل العملية طويلا.. لقد تناول رامز وجبته.. وشعرت أن بوسعي أن أنهض. أما هو فقد قام واتجه ليسترخي على الأريكة منهكا راضيا

أنا ما زلت حيا.. دوار قاتل يعصف بي وقدماي واهنتان لكني حي
اتجهت للباب بلا كلمة وبقعة سوداء كبيرة في مركز البصر.. موشك على فقدان الوعي فعلا.. ترى أين نورهان؟ هل فتك بها؟ هل هربت؟

على الدرج فقدت وعيي لبضع دقائق. نهضت في النهاية واستطعت أن أخرج للشارع.. واستوقفت سيارة أجرة

***

الآن أنا في دارك يا محمود. لا أحد يعرف أنني هنا.. أنت صحفي ويهمك أن تكتب تجربتي كاملة لكني أرفض ببساطة أن تنشر الجزء التالي

-"سوف أظل هنا أطول فترة ممكنة.. هات قرصا من الديازيبام مع بعض الماء وكف عن الرجفة أنت تعرف أنني اتجهت إلى دكتور أنطونيان.. تعرف أنني ابتعت سكينا أخفيته في ثيابي وأنا في الطريق له.. لقد قتلت صديقا منذ ساعات، فلا بأس من قتل وغد أريح المجتمع منه. عندما انفردت بالطبيب قلت له إنه دمر مستقبلنا جميعا.. بل إن هناك قتيلا وقاتلا في الموضوع.. الشرطة تبحث عني في كل مكان بلا شك ولا أحد يقدر على الفرار من الشرطة طويلا"-

انفردت بالطبيب وقلت له إنه دمر مستقبلنا جميعا - (رسوم: فواز) -

وهنا أخرجت السكين
حاولت طعنه لكني كنت واهنا بطيء الحركة بعد ما فقدت من دم.. وكان الوغد سريع الحركة برغم سنه، وعندما سقطت أرضا تكأكأ عليّ ثلاثة من الممرضين وقيدوني للأرض
نهض الرجل إلى غرفة جانبية.. بعد قليل عاد حاملا محقنا.. وشمر ذراعي وهو يقول في وقار:-
- أنت جلبت لي مريضين لهذا أنا مدين لك بخدمة.. الشرطة تبحث عنك، لهذا يجب أن أساعدك على الاختباء.. على التواري.. على الفرار بسرعة وخفة
قلت في وهن:-
- بم تحقنني؟
قال وهو يغرس الإبرة:-
- جرعة مضاعفة.. سوف يبدأ العمل بعد ساعات.. لن تحتاج لجلسات أخرى
ولا أعرف كيف وجدت نفسي في الشارع أبحث عن سيارة أجرة أخرى

الآن يا محمود أنت تعرف قصتي بالكامل. ربما تأخذك الحمية فتذهب لتقبض على هذا الرجل أو تبلغ عنه الشرطة.. بالنسبة لي قد انتهى الأمر.. لقد قدم لي الرجل خدمة عظيمة فعلا.. يمكنك بسهولة أن تشم الرائحة.. يمكنك أن ترى الحراشف على يدي.. يمكنك أن ترى شكل فكي

هكذا صار بوسعي أن أفر وأن أتوارى في أي مكان وأن أختبئ في البالوعات.. لن يجدني رجال الشرطة أبدا
لكن كل ما أرجوه منك هو أن تسممني وتتخلص من جثتي إذا بلغ التحول مبلغا

هات جرعة أخرى من الماء وقطعة خبز
إن حياة الصرصور قد تكون مثيرة فعلا

تمت